# الفصل العاشر

## غزوة الخندق (الأحزاب):

### تاريخ الغزوة:

وقعت هذه الغزوة في شوال سنة خمس كما قال ابن إسحاق[1] ومن تابعه، وهو قول الجمهور[2]، وقال الواقدي[3] إنها وقعت في يوم الثلاثاء الثامن من ذي القعدة في العام الخامس الهجري، وقال ابن سعد[4] إن الله استجاب لدعاء الرسول ﷺ فهزم الأحزاب يوم أربعاء من شهر ذي القعدة سنة خمس من مهاجره. ونقل عن الزهري ومالك بن أنس وموسى بن عقبة أنها وقعت سنة أربع هجرية[5].

ويرى العلماء أن القائلين بأنها وقعت سنة أربع كانوا يعدون التاريخ من المحرم الذي وقع بعد الهجرة ويلغون الأشهر التي قبل ذلك إلى ربيع الأول، فتكون غزوة بدر عندهم في السنة الأولى، وأحد في الثانية والخندق في الرابعة، وهو مخالف لما عليه الجمهور من جعل التاريخ من المحرم سنة الهجرة[6]. وجزم ابن حزم[7] أنها وقعت سنة أربع لقول ابن عمر أن

---

(١) ابن هشام (٣/ ٢٩٨) بدون إسناد.

(٢) انظر ابن كثير: البداية والنهاية (٤/ ١٠٥ - ١٠٦).

(٣) المغازي (٢/ ٤٤٠) - بدون إسناد.

(٤) الطبقات (٢/ ٦٥، ٧٣) بإسناد متصل، وفيه كثير بن زيد، وهو صدوق يخطىء. فالإسناد ضعيف، يقبله بعض العلماء الذين لا يرون بأساً من الاستشهاد بالضعيف غير الشديد الضعف في الأمور التي لا تتعلق بالأحكام أو العقائد.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية (٤/ ١٠٥)، صحيح البخاري: الفتح (١٥/ ٢٧٥/ك. المغازي/ ب. غزوة الخندق) حيث نقل قول موسى بن عقبة معلقا في ترجمة الباب، الفسوى: المعرفة والتاريخ (٣/ ٢٥٨).

(٦) ابن حجر: الفتح المصدر نفسه، ص ٢٧٦، وابن كثير: المصدر نفسه، البيهقي: الدلائل (٣/ ٣٩٦)، وقد أفاض في تاريخ هذه الغزوة، فانظره (٣/ ٣٩٢ - ٣٩٧)، وانظر معه كلام المحقق في حاشية ص ٣٩٣.

(٧) جوامع السيرة ، ص ١٨٥.

الرسول ﷺ رده يوم أحد ـ وهي في السنة الثالثة باتفاق ـ وهو ابن أربع عشرة سنة[٨]. ولكن البيهقي[٩] وابن حجر[١٠] وغيرهما فسروا ذلك بأن ابن عمر كان يوم أحد في بداية الرابعة عشرة ويوم الخندق في نهاية الخامسة عشرة. وهو الموافق لقول جمهور العلماء.

**سبب الغزوة:**

لم تضع الحرب أوزارها بين مشركي مكة والمسلمين إلا بعد فتح مكة في العام الثامن الهجري، ولذا فمن البدهي أن تحاول قريش في كل مرة القضاء على قوة المسلمين التي ترى فيها تهديدا مستمرا لطرق قوافلها وخطرا على مكانتها بين العرب.

أرادت قريش في هذه المرة أن تحسم هذا الصراع مع المسلمين لصالحها، فحشدت له أكبر قوة ممكنة حيث لجأت إلى التحالف مع كل من له مصلحة في القضاء على المسلمين. ووجدوا أكبر ضالة لهم في يهود بني النضير الذين أجلوا عن المدينة، ووجد اليهود ضالتهم في قريش، فقد التقت أهداف الفريقين، وهو القضاء على المسلمين.

كان أول ما فكر فيه زعماء بني النضير الذين خرجوا إلى خيبر أن يتصلوا بقريش والقبائل الأخرى للثأر لأنفسهم والطمع في العودة إلى ديارهم وأملاكهم في المدينة. فخرج وفد منهم إلى مكة، منهم: سلام بن أبي الحقيق وحيي بن أخطب وكنانة بن أبي الحقيق النضريون وهوذة بن قيس وأبوعمار الوائليان، في نفر من بني النضير ونفر من بني وائل، فدعوا قريشا إلى حرب رسول الله ﷺ ووعدوهم بالقتال معهم، حتى يستأصلوه، وأفتوهم بأن دينهم خير من دين محمد ﷺ، وأنهم أولى بالحق منه، وفيهم أنزل الله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون

---

(٨) البخاري/ الفتح (١٥/ ٢٧٥ ـ ٢٧٦/ح ٤٠٩٧).
(٩) الدلائل (٣/ ٣٩٦).
(١٠) الفتح (١٥/ ٢٧٦).

للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا﴾[11][12]. ثم اتجهوا بعد هذا إلى قبيلة غطفان النجدية الكبرى وأغروها بالتحالف معهم ومع قريش على حرب المسلمين[13]، على أن يكون لهم نصف ثمر خيبر[14]، إذا اشتركت معهم في الحرب، وكان وافدهم إلى غطفان كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، فأجابه عيينة بن حصن الفزاري إلى ذلك[15].

وكتب المشركون إلى حلفائهم من بني أسد، فأقبل إليهم طلحة بن خويلد فيمن أطاعه، وخرج أبوسفيان بقريش ومن اتبعه من قبائل العرب، فنزلوا بمر الظهران، فجاءهم من أجابهم من بني سليم مددا لهم بقيادة سفيان ابن عبدشمس والد أبي الأعور [16] وبنو مرة بقيادة الحارث بن عوف وأشجع بقيادة مسعر بن رخيلة[17]. وسارت مع قريش الأحابيش ومن تبعهم من بني كنانة وأهل تهامة[18]، فصاروا في جمع عظيم، فهم الذين سماهم الله تعالى الأحزاب[19]، وذكر ابن إسحاق[20] أن عدتهم عشرة آلاف بينما كان المسلمون ثلاثة آلاف[21].

---

(١١) النساء: ٥١.

(١٢) رواه ابن إسحاق بإسناد مرسل ـ ابن هشام (٣/ ٢٩٨ ـ ٩٩ )، وابن كثير في البداية، (٤/ ١٠٦)، والطبري في التفسير (٨/ ٤٦٩ ـ ٤٧١/ شاكر) من حديث ابن عباس بإسناد فيه محمد بن أبي محمد ـ وهو مجهول. وذكر الطبري آراء العلماء في سبب نزول هذه الآية وخلاصة رأيه: «وأولى الأقوال بالصحة ذلك قول من قال: إن ذلك خبر من الله جل ثناؤه عن جماعة من أهل الكتاب من اليهود. وجائز أن تكون كانت الجماعة الذين سماهم ابن عباس في الخبر الذي رواه محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد، أو يكون حيا وآخر معه، إما كعبا وإما غيره». ص ٤٧١. ورواه الواقدي (٢/ ٤٤١ ـ ٤٢ ).

(١٣) ابن كثير: التفسير (١/ ٥١٣) من رواية ابن إسحاق بإسناد حسن إلى ابن عباس، ورواه ابن إسحاق بإسناد مرسل ـ ابن هشام (٣/ ٣٠٠).

(١٤) عند الواقدي (٢/ ٤٤٣) فجعلوا لهم ثمر خيبر سنة.

(١٥) من رواية موسى بن عقبة بإسناده إلى الزهري، كما في الفتح (١٥/ ٢٧٥)، ودلائل البيهقي (٣/ ٣٩٨).

(١٦) من رواية موسى بن عقبة في دلائل النبوة (٣/ ٣٩٩) والفتح لابن حجر (١٥/ ٢٧٥) وعنده أن بني سليم بقيادة أبي الأعور، ولعله خطأ، والصواب ما ذكره الواقدي وابن سعد من أنه سفيان والد أبي الأعور، من قادة معاوية (رضي الله عنه) في صفين ـ انظر: الواقدي (٢/ ٤٤٣) و ابن سعد (٢/ ٦٦).

(١٧) من رواية ابن إسحاق بإسناده إلى الزهري وغيره من مشائخه، وهو مرسل ـ ابن هشام (٣/ ٣٠٠).

(١٨) ابن إسحاق بأسانيده إلى مشائخه ـ ابن هشام (٣/ ٣٠٦).

(١٩) من رواية موى بن عقبة في دلائل البيهقي والفتح لابن حجر ـ المصدرين السابقين.

(٢٠) ابن هشام (٣/ ٣٠٦) ـ معلقا.

(٢١) ذكر الواقدي عدد جماعة من هؤلاء الأحزاب: قريش ومن تبعها من الأحابيش = ٤٠٠٠، وبنو سليم = ٧٠٠، وبنو فزارة = ١٠٠٠، وأشجع = ٤٠٠، وبنو مرة = ٤٠٠ ـ المغازي (٢/ ٤٤٣). وهؤلاء ستة آلاف وخمسمائة مقاتل، وتكون بقية العشرة آلاف مقاتل من بين اسد وبقية غطفان.

تحرك هذا الجيش العرمرم من مر الظهران في طريقه إلى المدينة. فنزلت قريش ومن سار معها بمجتمع الأسيال من رُومة، بين الجُرُف وزُغابة. ونزلت غطفان بذَنب نَقْمِى إلى جانب أحد[٢٢]، ونزل معهم بنوأسد[٢٣].

فلما سمع بهم رسول الله ﷺ وما أجمعوا له من الأمر، استشار أصحابه، وقد أشار عليه سلمان الفارسي بحفر الخندق[٢٤] في المنطقة الوحيدة المكشوفة أمام الغزاة، أما الجهات الأخرى فكانت كالحصن تتشابك فيها الأبنية وأشجار النخيل وتحيطها الحرات التي يصعب على الإبل والمشاة التحرك فيها[٢٥].

ووافق الجميع على هذه الفكرة لعلمهم بكثرة الجموع القادمة لحربهم، وشرعوا في حفر الخندق الذي يمتد من أجم الشيخين طرف بن حارثة شرقا حتى المذاذ غربا، وكان طوله خمسة آلاف ذراع، وعرضه تسعة أذرع، وعمقه من سبعة أذرع إلى عشرة. وكان على كل عشرة من المسلمين حفر أربعين ذراعا[٢٦]. حفر المهاجرون من ناحية حصن راتج في الشرق إلى حصن ذباب، والأنصار من حصن ذباب إلى جبل عبيد في الغرب[٢٧].

وعمل المسلمون في الحفر على عجل، يبادرون قدوم القوم[٢٨]، وقد تراوحت مدة الحفر ما بين ستة أيام وأربعة وعشرين يوما. فعند ابن عقبة[٢٩]

---

(٢٢) ابن إسحاق ـ معلقا ـ ابن هشام (٣/ ٣٠٦)، وفي ثلاثيات مسند أحمد للسفاريني (١/ ١٩٩ ـ ٢٠٠)، الغابة بدلا عن زغابة ولا تعارض بينهما لأن الغابة شمالي زغابة ومتجاورتان.

(٢٣) من رواية موسى بن عقبة في دلائل البيهقي والفتح لابن حجر.

(٢٤) من رواية لأبي معشر السندي في مغازيه كما ذكر ابن حجر في الفتح ١٥/ ٢٧٥ ـ معلقا، والواقدي (٢/ ٤٤٥) بأسانيده إلى مشائخه وفيهم أبومعشر ـ نجيح ـ وهو ضعيف، وفيهم الثقات والضعفاء... وابن سعد (٢/ ٦٦) معلقا.

(٢٥) من رواية موسى بن عقبة بإسناده إلى الزهري، كما في الفتح (١٥/ ٢٧٥)، ودلائل البيهقي (٣/ ٣٩٨).

(٢٦) وردت بذلك روايات ضعيفة من الناحية الحديثية، من طريق كثير بن عبدالله المزني، وهو ضعيف، فانظرها في: مجمع الزوائد (٦/ ١٣٠) وتفسير الطبري (٢١/ ٣٣) وفتح الباري (١٥/ ٢٨٠) وغيرهم. وقد وثق هاروق كثير هذا.

(٢٧) الواقدي (٢/ ٤٤٥ ـ ٤٥٠)، ابن سعد (٢/ ٦٦ ـ ٦٧) ـ معلقا، شرح ثلاثيات مسند أحمد (١/ ١٩٩ ـ ٢٠٠).

(٢٨) من رواية ابن عقبة في الدلائل والفتح ـ سبق ذكرها.

استغرق قريبا من عشرين ليلة، وعند الواقدي[٣٠] أربعا وعشرين ليلة، وفي الروضة للنووي[٣١] خمسة عشر يوما، وعند ابن سعد ستة أيام[٣٢].

وكان طعامهم القليل من الشعير يخلط بدهن متغير الرائحة لقدمه، ويطبخ فيأكلونه على الرغم من بشاعة طعمه في الحلق ورائحته المنتنة، وذلك لشدة جوعهم[٣٣]. وحتى هذا لا يجدونه أحيانا فيأكلون التمر[٣٤]، وأحيانا لا يجدون هذا ولا ذاك لمدة ثلاثة أيام متتالية، إلى الحد الذي يعصب فيه النبي ﷺ بطنه بحجر من شدة الجوع[٣٥].

وشارك جميع المسلمين في الحفر، لا فرق بين غني وفقير ومولى وأمير، وأسوتهم في ذلك الرسول ﷺ الذي حمل التراب حتى اغبر بطنه ووارى التراب جلده، وكان الصحابة يستعينون به في تفتيت الصخرة التي تعترضهم ويعجزون عنها، فيفتتها لهم[٣٦]. ويردد معهم الأهازيج والأرجاز لتنشيطهم للعمل، فيقول:

«اللهم لولا أنت ما اهتدينا * ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا * وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الألى قد بغوا علينا * وإن أرادوا فتنة أبينا»

وكان يمد بها صوته بآخرها[٣٧]

ويرتجز المسلمون وهم يعملون:

«نحن الذين بايعوا محمدا * على الإسلام ما بقينا أبدا»

---

(٢٩) من روايته في الفتح...
(٣٠، ٣١) الفتح (١٥/٢٧٦).
(٣٢) الطبقات (٢/٦٧) ـ معلقا. وقد ذكر الدكتور العمري هذا القول دون غيره، ولعله المعتمد عنده ـ انظر: المجتمع المدني ـ الجهاد، ص ١١٤. ونحن نميل إلى رواية ابن عقبة لأنه من رجال الكتب الستة وثقة وإمام في المغازي، كما ذكرنا في أول هذا الكتاب، وفي أماكن أخرى.
(٣٣) البخاري/ الفتح (١٥/٢٧٨/ح ٤١٠٠).
(٣٤) ابن اسحاق ـ بإسناد منقطع ـ ابن هشام (٣٠٣ ـ ٣٠٤)، وانظر: البداية (٤/١١٢).
(٣٥) البخاري/ الفتح (١٥/٢٧٩/ح ٤١٠١).
(٣٦) البخاري/ الفتح (١٥/٢٧٦ ـ ٢٧٩/ح ٤٠٩٨ ـ ٤١٠١)، مسلم (٣/١٤٣٠/ح ١٨٠٣).
(٣٧) البخاري/ الفتح (١٥/٢٨٥/ح ٤١٠٤) واللفظ له، ومسلم (٣/١٤٣٠ ـ ١٤٣٢/ح ١٨٠٣ ـ ١٨٠٥).

فيجيبهم بقوله:

«اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة فبارك في الأنصار والمهاجرة[٣٨]». وربما يبدؤهم بقوله فيردون عليه بقولهم[٣٩].

**من دلائل النبوة أثناء حفر الخندق:**

أجرى الله سبحانه وتعالى على يدى نبيه محمد ﷺ عدة معجزات أثناء حفر الخندق، ومن ذلك:

١) عندما لحظ جابر بن عبدالله (رضي الله عنه) ما يعانيه الرسول ﷺ من الجوع، استأذنه وذهب إلى زوجته وأخبرها بما رأى من المخمصة على الرسول ﷺ وطلب منها أن تصنع له طعاما، فذبح عناقا له وطحنت زوجه صاعا من شعير بقي لهما، وصنعت بُرْمَة، وذهب جابر فدعا النبي ﷺ إلى الطعام وسارره بكمية الطعام، وانه طُعَيم يكفي لرجل أو رجلين، فدعا النبي ﷺ كل من كان حاضرا وعددهم ألف، وتحير جابر وزوجته، لكن النبي ﷺ بارك في البرمة، فأكل منها كل الناس حتى شبعوا وتركوا فيها الكثير الذي أكل منه أهل جابر وأهدوا[٤٠].

٢) أخبر عمار بن ياسر، وهو يحفر معهم الخندق، بأن ستقتله الفئة الباغية، فقتل في صفين وكان في جيش علي[٤١].

٣) وعندما اعترضت صخرة للصحابة وهم يحفرون، ضربها الرسول ﷺ ثلاث ضربات فتفتت. قال إثر الضربة الأولى: «الله أكبر، أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمراء الساعة، ثم ضربها الثانية، فقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح فارس والله إني لأبصر قصر المدائن أبيض، ثم ضرب الثالثة، وقال: الله أكبر أعطيت مفاتيح

---

(٣٨) البخاري/ الفتح (١٥/ ٢٧٦ - ٢٧٨/ح ٤٠٩٨)، مسلم (٣/ ١٤٣١/ح ١٨٠٥).
(٣٩) المصدرين نفسيهما.
(٤٠) البخاري/ الفتح (١٥/ ٢٨٠ - ٢٨٣/ وهما حديثان من طريقين بإسناديهما إلى جابر/ح ١٤٠١، ٤١٠٢) ومسلم (٣/ ١٦١٠ - ١١/ح ٢٠٣٩)، ورواه ابن إسحاق بإسناد حسن - ابن هشام (٣/ ٤٠٣ - ٣٠٥).
(٤١) مسلم (٤/ ٢٢٣٥/ح ٢٩١٥).

اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذه الساعة[٤٢]».

وفي هذا الحديث بشارة بأن هذه المناطق سيفتحها المسلمون مستقبلا، وكان موقف المؤمنين من هذه البشارة ما حكاه القرآن الكريم ﴿هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما﴾[٤٣]، وموقف المنافقين الذين سخروا من البشارة: ﴿وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا﴾[٤٤].

وصورت الآيات من ١٣ إلى ٢٠ من سورة الأحزاب نفسية المنافقين تصويرا دقيقا، وحكت أقوالهم في الإرجاف والتخذيل، وأساليبهم في التهرب من العمل في حفر الخندق وجهاد العدو.

وعلى الرغم من تخذيل المنافقين وقلة الطعام وشدة البرد فقد تم حفر الخندق ليكون خط دفاع متينا ثم جمع النساء والأطفال وأصحاب الأعذار في حصن فارع[٤٥]، وهو لبني حارثة، لأنه كان أمنع حصون المسلمين آنذاك[٤٦].

وكانت خطة المسلمين أن يكون ظهرهم إلى جبل سلع داخل المدينة[٤٧] ووجوههم إلى الخندق الذي يحجز بينهم وبين المشركين الذين نزلوا رومة بين الجرف والغابة ونقمى[٤٨].

وعندما نظر الرسول ﷺ في حال العدو وحال المسلمين ورأى ضعف

---

(٤٢) من رواية أحمد والنسائي بإسناد حسن كما قال ابن حجر في الفتح (١٥/ ٢٨٠)، والطبراني في المعجم الكبير (١١/ ٣٧٦)، وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ١٣١): «رجاله رجال الصحيح غير عبدالله بن أحمد ونعيم العنبري، وعبدالله بن الإمام جعفر ثقة، وأما نعيم فلم نقف على ترجمته.

(٤٣) الأحزاب: ٢٢.

(٤٤) الأحزاب: ١٢.

(٤٥) مسلم (٤/ ١٨٧٩/ح ٢٤١٦) واسم الحصن عنده «أطم ـ حصن ـ حسان». وذكر ابن إسحاق بإسناد مرسل أن حصن فارع هو حصن حسان بن ثابت ـ ابن هشام (٣/ ٣١٧)، وجاء الاسم فارع مصرحا به أيضا في رواية البزار وأبي يعلى بإسناد ضعيف كما في المجمع (٦/ ١٣٣ ـ ١٣٤) وكشف الأستار للهيثمي (١/ ٣٣٣) وعند الواقدي (٢/ ٤٦٢).

(٤٦) رواه الطبراني كما في المجمع (٦/ ١٣٣) وقال الهيثمي: «رجاله ثقات»، وضعفه الدكتور العمري في: المجتمع المدني ـ الجهاد، ص١١٧، لأنه لم يقف على ترجمة لشيخ الطبراني وشيخ شيخه. وانظر الواقدي (٢/ ٤٦٩)، وابن إسحاق بإسناد منقطع ـ ابن هشام (٣/ ٣١٥).

(٤٧) من رواية ابن إسحاق ـ معلقة ـ ابن هشام (٣/ ٣٠٦).

(٤٨) من رواية مرسلة لعروة رواها الطبري في تفسيره (٢١/ ١٢٩ ـ ١٣٠).

المسلمين وقوة المشركين، أراد أن يكسر شوكة المشركين، فبعث إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة زعيمي الأنصار، فاستشارهما في الصلح الذي عرضته عليه قبيلة غطفان، وهو أن يعطوا ثلث ثمار المدينة لعام كي ينصرفوا عن قتال المسلمين، ولم يبق إلا التوقيع على صحيفة الصلح، فقالا له: «لا والله ما أعطينا الدنية من أنفسنا في الجاهلية فكيف وقد جاء الله بالإسلام». وفي رواية الطبراني أنهما قالا: «يارسول الله: أوحي من السماء فالتسليم لأمر الله، أو عن رأيك أو هواك؟ فرأينا تبع هواك ورأيك، فإن كنت إنما تريد الإبقاء علينا، فوالله لقد رأيتنا وإياهم على سواء ما ينالون منا ثمرة إلا شراء أو قرى». فقطع رسول الله ﷺ المفاوضة مع الأعراب الذين كان يمثلهم الحارث الغطفاني، قائد بني مرة(٤٩).

وفي الجانب الآخر أراد يهود بني النضير أن يجروا معهم إخوانهم يهود بني قريظة إلى نقض العهد والغدر بالمسلمين والوقوف مع الأحزاب. فأوفدوا حييا ابن أخطب للقيام بهذه المهمة. فجاء حيي إلى كعب بن أسد القرظي. وبعد حوار طويل بينهما أقنعه بنقض العهد مع المسلمين بحجة قوة الأحزاب ومقدرتهم على استئصال المسلمين، وأغراه بأن يدخل معه حصنه عندما ينصرف الأحزاب، بعد أداء مهمتهم(٥٠).

وكان يوما عصيبا من الدهر، ذلك اليوم الذي علم فيه المسلمون نقض بني قريظة ما بينهم وبين المسلمين من عهد. وتكمن خطورة ذلك في موقعهم الذي يمكنهم من تسديد ضربة غادرة للمسلمين من الخلف. فقد كانت ديارهم في العوالي، إلى الجنوب الشرقي للمدينة على وادي مهزور(٥١).

---

(٤٩) رواه البزار والطبراني بإسنادين كلاهما حسن ـ انظر: كشف الأستار (١/ ٣٣١ ـ ٣٣٢) ومجمع الزوائد (٦/ ١٣٢) وتشهد له طرق أخرى ولكنها ضعيفة، مثل: رواية ابن إسحاق المعلقة ـ ابن هشام (٣/ ٣١٠ ـ ٣١١) وابن سعد مرسلاً مختصراً (٢/ ٧٣) وابن أبي شيبة في المصنف (١٤/ ٤٢٠) بسنده إلى أبي معشر. وفي رواية ابن إسحاق ان سعد بن معاذ تناول الصحيفة فمحا ما فيها من الكتابة، ثم قال: «ليجهدوا علينا».

(٥٠) رواه ابن إسحاق معلقا ـ ابن هشام (٣/ ٣٠٧ ـ ٣٠٨)، وموسى بن عقبة فيما نقله عنه البيهقي في الدلائل (٣/ ٤٠٠ ـ ٤٠١) وهو موقوف على شيخه الزهري.

(٥١) انظر: معجم البلدان للحموي (٥/ ٢٣٤ ـ ٢٣٥).

لقد أتاه الزبير بما يدل على غدرهم، ويومها قال له الرسول ﷺ: «فداك أبي وأمي، إن لكل نبي حواريًا، وحواري الزبير[٥٢]». ولزيادة الحيطة والحذر والتأكد من مثل هذه الأمور الخطيرة، أرسل الرسول ﷺ سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وعبدالله بن رواحة وخوات بن جبير، فجاءوا إلى بني قريظة وتحدثوا معهم، ووجدوهم قد نكثوا العهد ومزقوا الصحيفة التي بينهم وبين الرسول ﷺ إلا بني سعية[٥٣]، فإنهم جاؤوا إلى المسلمين وفاء بالعهد. وعاد رسل المسلمين إلى الرسول ﷺ بالخبر اليقين[٥٤].

وعندما شاع هذا الخبر خاف المسلمون على ذراريهم من بني قريظة[٥٥]، ومروا بوقت عصيب وابتلاء عظيم. ونزل القرآن واصفا هذه الحالة: ﴿إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا. هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا﴾[٥٦].

فالذين جاؤهم من فوقهم هم الأحزاب، وبنو قريظة من أسفل منهم، والذين ظنوا بالله الظنونا هم المنافقون. أما المؤمنون فقد صمدوا لهذا الامتحان. واتخذوا كل الوسائل الممكنة لاجتياز الامتحان، فنظموا فرقا للحراسة، فكان سلمة بن أسلم الأوسي أميرا لمائتي فارس وزيد بن حارثة أمير لثلثمائة فارس، يطوفون المدينة ويكبرون لإشعار بني قريظة باليقظة حتى لا تحدثهم أنفسهم بأن يغدروا بالذرية التي في الحصون[٥٧].

وعندما وصلت الأحزاب المدينة فوجئوا بوجود الخندق، فقاموا بعدة

---

(٥٢) البخاري/ الفتح (١٥/ ٢٩١/ح ٤١١٣)، مسلم (٤/ ١٨٧٩/ح ٢٤١٥) وغيرهما... وتفصيل الخبر عند الواقدي (١/ ٤٥٧) حيث ذكر أن الزبير رآهم يصلحون حصونهم ويدربون طرقهم وقد جمعوا ماشيتهم ـ وهذا يدل على أن الزبير نقل معلومات ظرفية.

(٥٣) جاء خبر بني سعية في رواية لابن إسحاق بإسناد معلق ـ ابن هشام (٣/ ٣٢٩ ـ ٣٣٠).

(٥٤) من رواية ابن إسحاق المعلقة ـ ابن هشام (٣/ ٣٠٨ ـ ٣٠٩) وابن عقبة المنقطعة كما في دلائل البيهقي (٣/ ٤٠٠ ـ ٤٠١)، والواقدي (٢/ ٤٥٨ ـ ٤٥٩)، وابن سعد (٢/ ٦٧).

(٥٥) المصدران نفساهما.

(٥٦) الأحزاب: ١٠ ـ ١١. رواه ابن اسحاق معلقا ـ ابن هشام (٣/ ٣٣٩ ـ ٤٠) والطبري في التفسير (٢١/ ١٢٨ ـ ١٥٥) مرسلا عن بعض التابعين، وهي عدة آثار، وهي بمجموعها تتقوى ببعضها البعض وترتقي إلى درجة الحسن لغيره.

(٥٧) ابن سعد (٢/ ٦٧) معلقا، الواقدي (٢/ ٤٦٠).

محاولات لاقتحامه، ولكنهم فشلوا لأن المسلمين كانوا يمطرونهم بوابل سهامهم كلما هموا بذلك، ولذا استمر الحصار لمدة أربع وعشرين ليلة[٥٨].

وذكر ابن إسحاق[٥٩] وابن سعد[٦٠] أن بعض المشركين اقتحموا الخندق، وعد ابن إسحاق منهم: عَمْرو بن عبد وُدّ وعكرمة بن أبي جهل وهُبَيْرَة بن أبي وهب وضِرَار بن الخَطَّاب الشاعر بن مِرْدَاس، وزاد ابن سعد واحدا على هؤلاء وهو: نَوْفَل بن عبدالله. وذكر أن عليا بارز عمرو بن عبد ود ـ فارس قريش ـ وقتله، وأن الزبير قتل نوفلا المخزومي وأن الثلاثة الآخرين فروا إلى معسكرهم.

وظلت مناوشات المشركين للمسلمين وتراشقهم معهم بالنبل دون انقطاع طيلة مدة الحصار، حتى إنهم شغلوا المسلمين يوماً عن أداء صلاة العصر، فصلوها بعد الغروب[٦١]. وذلك قبل أن تشرع صلاة الخوف، حيث شرعت في غزوة ذات الرقاع[٦٢] على رأي من يرى أن ذات الرقاع كانت بعد غزوة الخندق.

وقتل في هذه المناوشات ثلاثة من المشركين واستشهد ستة من المسلمين[٦٣] منهم سعد بن معاذ، الذي أصيب في أكحله ـ عرق في وسط الذراع ـ رماه حِبَّان بن العَرِقَة. وقد نصبت له خيمة في المسجد ليعوده الرسول ﷺ من

---

(٥٨) من رواية ابن سعد (٢/ ٧٣) بإسناد رجاله ثقات ولكنه من مراسيل ابن المسيب ومراسيله قوية، وهو أقوى إسناد في مدة الحصار. وقال ابن إسحاق: «بضعاً وعشرين ليلة، قريبا من شهر» ـ ابن هشام (٣/ ٣١٠) ـ معلقا. وروى الطبري في تفسيره (٢١/ ١٢٨) من مرسل قتادة بإسناد حسن أن الحصار دام شهرا، وفي رواية موسى بن عقبة عن ابن شهاب كما في دلائل البيهقي (٣/ ٤٠١) أنه قريب من عشرين ليلة، وقال ابن سعد (٢/ ٧٠): «خمس عشرة ليلة».

(٥٩) ابن هشام ـ معلقا (٣/ ١١ ـ ٣١٣).

(٦٠) الطبقات الكبرى (٢/ ٦٨) معلقا. وقد أورد الطبري في تاريخه (٣/ ٤٨) مبارزة علي لابن عبد ود من مرسل الزهري، ومراسيله ضعيفة، ومن مرسل عكرمة بإسناد رجاله ثقات. وانظر محاولات اقتحام المشركين الخندق ومناوشاتهم ومبارزة علي وابن عبد ود عند الواقدي (٢/ ٤٦٤ ـ ٤٧٣)، وهي ملحمة بطولية وإيمانية قوية لعلي، أنصح أن يقف عندها شباب الإسلام وفتات متأنية فاحصة. ولله دره من فارس مغوار.

(٦١) البخاري/ الفتح (١٥/ ٢٩١/ح ٤١١١ ـ ٤١١٢) وانظر شرح ابن حجر للحديث.

(٦٢) البخاري/ الفتح (١٥/ ٣٠٦/ح ٤١٢٥).

(٦٣) من رواية ابن إسحاق والواقدي معلقا، وذكرا العدد والأسماء والقبائل ـ ابن هشام (٣/ ٣٤٩ ـ ٣٥٠) ومغازي الواقدي (٢/ ٤٩٥ ـ ٤٩٦). وذكر ابن سعد ـ معلقا (٢/ ٧٠) أسماء أربعة من الذين ذكرهم ابن إسحاق والواقدي.

قريب، ثم مات بعد غزوة بني قريظة، حين انتقض جرحه[٦٤] وكانت تقوم على تمريضه رُفَيدة الأسلمية[٦٥].

وكان شعار أصحاب رسول الله ﷺ يوم الخندق وبني قريظة: «حم، لا ينصرون»[٦٦].

لقد كفى الله المؤمنين القتال فهزم الأحزاب بوسيلتين: الأولى: تسخير الله نُعَيْم بن مسعود ليخذل الأحزاب، والثانية: الرياح الهوجاء الباردة.

**١ ـ دور نُعَيْم بن مسعود:**

روى ابن إسحاق[٦٧] والواقدي[٦٨] وعبدالرزاق[٦٩] وموسى بن عقبة[٧٠] أن نعيم بن مسعود الغطفاني، أتى النبي ﷺ مسلما وعرض عليه أن يقوم بتنفيذ أي أمر يريده النبي ﷺ فقال له: «إنما أنت رجل واحد فينا، ولكن خذل عنا إن استطعت، فإن الحرب خُدْعَة[٧١]».

وقبل أن يُعرف إسلام نعيم، أتى بني قريظة، فأقنعهم بعدم التورط مع قريش في قتال حتى يأخذوا منهم رهائن، لكيلا يولوا الأدبار، ويتركوهم وحدهم يواجهون مصيرهم مع المسلمين بالمدينة. ثم أتى قريشا فأخبرهم أن

---

(٦٤) البخاري/ الفتح (١٥/ ٢٩٩/ح ٤١٢٢) وقد روى البخاري أن سعدا دعا الله أن يبقيه لحرب قريش إن كان قد بقي منها شيء ليجاهد فيهم، وأن يفجر جرحه فيموت إن كان الله قد وضع الحرب بين قريش والمسلمين ـ إشارة إلى هذه الحرب ـ فانفجر جرحه، فكان سبب موته، انظر: البخاري/ الفتح (١٥/ ٣٠١/ح ٤١٢٢) وزاد ابن إسحاق أنه دعا قائلا: «ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة» ـ ابن هشام (٣/ ٣١٦) معلقا. وانظر سناقبه عند البخاري ومسلم وغيرهما. وانظر الحديث من رواية أحمد في المسند: الفتح الرباني (٢١/ ٨٢) وحسن الهيثمي إسناده كما في المجمع (٦/ ١٣٩).

(٦٥) من رواية ابن إسحاق بإسناد معلق ـ ابن هشام (٣/ ٣٣١).

(٦٦) رواه ابن إسحاق معلقا ـ ابن هشام (٣/ ٣١٤)، وأبو دواد في سننه (٣/ ٧٤/ك. الجهاد/ ب. في الرجل ينادي بالشعار)، والترمذي في السنن (٣/ ١١٥/ك. الجهاد/ ب. الشعار) وكلاهما بالسند نفسه، وأحمد في المسند (٤/ ٢٨٩) والحاكم من طرق (٢/ ١٠٧) وصححه وسكت عنه الذهبي. ويصح الحديث بالشواهد والمتابعات كما ذكر محققا سيرة ابن هشام (٣/ ٣١٥).

(٦٧) ابن إسحاق ـ معلقا ـ ابن هشام (٣/ ٣١٩ ـ ٣٢٠).

(٦٨) الواقدي (٢/ ٤٨٠ ـ ٤٨٣).

(٦٩) المصنف (٥/ ٣٦٨ ـ ٣٦٩) مرسلا عن ابن المسيب. ومراسيله قوية.

(٧٠) من روايته المرسلة عن الزهري عند البيهقي في الدلائل (٣/ ٤٠٤ ـ ٤٠٥) وابن كثير في تاريخه (٤/ ١٢٧).

(٧١) «الحرب خدعة»، حديث للرسول ﷺ رواه البخاري/ الفتح (١٢/ ١٢٦/ح ٣٠٢٩ ـ ٣٠٣٠) ومسلم (٣/ ١٣٦١/ح ١٧٣٩)، وغيرهما.

بني قريظة قد ندموا على ما فعلوا، وأنهم قد اتفقوا سرا مع رسول الله ﷺ على أن يختطفوا عددا من أشراف قريش وغطفان فيسلموهم له ليقتلهم دليلا على ندمهم، وقال لهم: فإن أرسلت إليكم يهود يلتمسون منكم رهنا من رجالكم فإياكم أن تسلموهم رجلا منكم. ثم أتى غطفان وقال لهم مثل الذي قاله لقريش. وبذلك زرع بذور الشك بينهم. وأخذ كل فريق يتهم الفريق الآخر بالخيانة.

**٢ - معجـزة الريـاح:**

هبت ريح هوجاء في ليلة مظلمة باردة، فقلبت قدور المشركين واقتلعت خيامهم وأطفأت نيرانهم ودفنت رحالهم، فما كان من أبي سفيان إلا أن ضاق بها ذرعا فنادى في الأحزاب بالرحيل[٧٢]. وكانت هذه الريح من جنود الله الذين أرسلهم على المشركين، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها، وكان الله بما تعملون بصيرا﴾[٧٣].

وروى مسلم[٧٤] بسنده عن حذيفة بن اليمان طرفا مما حدث في تلك الليلة الحاسمة، قال حذيفة: «لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب، وأخذتنا ريح شديدة وقر، فقال رسول الله ﷺ: «ألا رجل يأتيني بخبر القوم، جعله الله معي يوم القيامة»، فسكتنا فلم يجبه منا أحد، . . .(ردد ذلك ثلاثا) ثم قال: قم ياحذيفة فَأْتِنا بخبر القوم، فلم أجد بداً إذ دعاني باسمي أن أقوم. قال: اذهب فأتني بخبر القوم ولا تذعرهم علي. فلما وليت من عنده جعلت كأنما أمشي في حمام، حتى أتيتهم، فرأيت أبا سفيان يصلي ظهره بالنار، فوضعت سهما في كبد القوس، فأردت أن أرميه، فذكرت قول رسول الله ﷺ: «ولا تذعرهم علي»، ولو رميته لأصبته، فرجعت، وأنا أمشي

---

(٧٢) ابن سعد (٢/ ٧١) من مرسل سعيد بن جبير، ودلائل النبوة للبيهقي (٣/ ٤٠٦)، من رواية موسى بن عقبة المرسلة عن الزهري. ومراسيله ضعيفة.

(٧٣) الأحزاب: ٩.

(٧٤) صحيحه (٣/ ١٤١٤ - ١٤١٥/ح ١٧٨٨).

في مثل الحمام. فلما أتيته فأخبرته بخبر القوم وفرغت، فألبسني رسول الله ﷺ من فضل عباءة كانت عليه يصلي فيها. فلم أزل نائما حتى أصبحت، فقال: قم يانومان».

وزاد ابن إسحاق[٧٥] في روايته لهذا الخبر: «... فدخلت في القوم، والريح وجنود الله تفعل بهم ماتفعل لاتقر لهم قدرا و لا إناء ولا بناء، فقام أبوسفيان، فقال: يامعشر قريش لينظر امرؤ من جليسه؟ فأخذت بيد الرجل الذي كان إلى جانبي فقلت له من أنت؟ قال: فلان بن فلان. ثم قال أبوسفيان: يامعشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع والخف، وأخلفتنا بنوقريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من شدة الريح ما ترون... فارتحلوا فإني مرتحل».

وفي رواية الحاكم[٧٦] والبزار[٧٧]: «... فانطلقت إلى عسكرهم فوجدت أباسفيان يوقد النار في عصبة حوله، قد تفرق الأحزاب عنه، حتى إذا جلست فيهم فحسب أبوسفيان أنه دخل فيهم من غيرهم، قال: ليأخذ كل رجل منكم بيد جليسه، فضربت بيدي على الذي على يميني وأخذت بيده، ثم ضربت بيدي على الذي عن يساري فأخذت بيده، فلبثت هنيهة، ثم قمت فأتيت رسول الله ﷺ... قلت يارسول الله: تفرق الناس عن أبي سفيان فلم يبق إلا عصبة توقد النار قد صب الله عليه من البرد مثل الذي صب علينا ولكنا نرجو من الله ما لا يرجون».

وختم الله هذا الامتحان الرهيب بهذه النهاية السعيدة، وجنب المسلمين شر القتال، قال تعالى معلقا على هذه الخاتمة: ﴿ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا﴾[٧٨]

---

(٧٥) ابن هشام (٣/ ٣٢٢) بإسناد مرسل موقوف على محمد بن كعب القرظي.

(٧٦) المستدرك (٣/ ٣١) وصححه ووافقه الذهبي. ورواية الحاكم والبزار ومسلم وأبي نعيم والبيهقي شاهد على رواية ابن اسحاق، وتقويها. انظرها عند أبي نعيم في دلائلة (٢/ ٥٠٠ - ٥٠١) والبيهقي في الدلائل (٣/ ٤٤٩ - ٤٥٤) من عدة طرق.

(٧٧) في كشف الأستار للهيثمي (٢/ ٣٣٥ - ٣٣٦) وقال في المجمع (٦/ ١٣٦): رواه البزار ورجاله ثقات.

(٧٨) الأحزاب: ٢٥.

وكانت هذه الخاتمة استجابة لضراعة النبي ﷺ إلى الله أثناء محنة الحصار: «اللهم منزل الكتاب سريع الحساب اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم»[٧٩].

لقد بذلت الأحزاب أقصى ما يمكنهم لاستئصال المسلمين، ولكن الله ردهم خائبين، وهذا يعني أنهم لن يستطيعوا أن يفعلوا شيئا في المستقبل، ولذا قال الرسول ﷺ: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم»[٨٠] وهذا علم من أعلام النبوة، لأن الذي حدث بعد هذا هو ما ذكره الرسول ﷺ.

**حكم وعبر في غزوة الخندق:**

١ ـ إن حفر الخندق يدخل في مفهوم المسلمين لقوله تعالى: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ فينبغي على المسلمين اتخاذ وسائل القوة المتاحة مهما كان مصدرها، لأن الحكمة ضالة المؤمن، فحيثما وجدها التقطها.

٢ ـ لقد ضرب الرسول ﷺ المثل الأعلى للحكام والمحكومين في العدالة والمساواة وعدم الاستئثار بالراحة يوم وقف جنبا إلى جنب مع أفراد جيشه ليعمل بيده في حفر الخندق. وهذه هي صفة العبودية الحقة التي تجلت في شخصية الرسول ﷺ.

٣ ـ أعطى الرسول ﷺ مثلا آخر على رأفته بالمؤمنين، يوم شاركهم في حفر الخندق ويوم أشركهم معه في طعيم جابر، ولم يستأثر به مع قلة من الصحابة. وفي ضوء هذه المعاني يفهم قول الله تعالى: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾[٨١].

---

(٧٩) مسلم (٣/١٣٦٣/ح ١٧٤٢).

(٨٠) البخاري/ الفتح (١٥/ ٢٩٠/ح ٤١٠٩، ٤١١٠)، وانظر شرح ابن حجر لهذا الحديث. ورواه ابن إسحاق بلاغا ـ ابن هشام (٣/٣٥٢)، ورواه غيره. وإشارتنا إلى رواية ابن إسحاق وغيره من أهل السير إلى جانب رواية الصحيح للدلالة على أنهم أئمة في هذا الشأن وأن ما يروونه بلاغا أو منقطعا أو معلقا أو بأي صورة من صور الضعيف يمكن أن يكون له أصل في الصحيح.

(٨١) التوبة: ١٢٨.

٤ ـ إن مجموعة المعجزات التي أجراها الله على يد نبيه محمد ﷺ أيام الخندق، سواء التي كانت في حفر الخندق أو تكثير طعيم جابر أو الرياح التي كانت نقمة على المشركين، لهي مجموعة أخرى في سلسلة المعجزات الكثيرة التي أيد الله بها نبيه، ليقطع الحجة لدى المعاندين من المنافقين والمشركين وكل صنف من أصناف أعداء الدين.

٥ ـ إن الحكمة في استشارته ﷺ لبعض أصحابه في الصلح الذي اقترحته غطفان على الرسول ﷺ، هو أن الرسول ﷺ كان يريد أن يطمئن إلى مدى ما يتمتع به أصحابه من القوة المعنوية والاعتماد على نصر الله وتوفيقه على الرغم من ذلك الذي فوجئوا به من اجتماع أشتات المشركين عليهم في كثرة ساحقة، إلى جانب خذلان بني قريظة للمسلمين ونقض مواثيقهم معهم.

٦ ـ وأما الدلالة التشريعية في هذه الاستشارة، فهي محصورة في مجرد مشروعية مبدأ الشورى في كل مالا نص فيه. وهي بعد ذلك لا تحمل أي دلالة على جواز صرف المسلمين أعداءهم عن ديارهم إذا ما اقتحموها، باقتطاع شيء من أرضهم أو خيراتهم لهم. إذ إن مما هو متفق عليه في أصول الشريعة الإسلامية أن الذي يحتج به من تصرفاته ﷺ إنما هو أقواله، وأفعاله التي قام بها، ثم لم يرد اعتراض عليها من الله في كتابه العزيز.

وليس في هذه الاستشارة دليل على جواز دفع المسلمين الجزية إلى أعدائهم. أما إذا ألجئوا إلى اقتطاع جزء من أموالهم فعليهم التربص بأعدائهم لاسترداد حقهم المسلوب[٨٢].

٧ ـ عندما شغل المشركون الرسول ﷺ وأصحابه عن صلاة العصر، صلوها قضاء بعد المغرب، وفي هذا دليل على مشروعية قضاء الفائتة.

---

(٨٢) انظر هذه القضايا الفقهية عند البوطي: فقه السيرة، ص ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤.